مذكرات يمليخا

قصة بقلم الدكتور عبد الغفار مكاوي

هل اروي لكم ما حدث لي في ذلك اليوم ؟

لست ادري ان كانت ستهمكم حياتي القصيرة ـ التي قالوا لي فيما بعد لفرط دهشتي انها اطول من حياة خمسة رجال يموتون على احسن الفروض بعد سن الستين . فقد تعودت خلالها على الا يهتم بي احد ، اللهم الاغنمي القليلة وكلبي العزيز قطمير ، هذا اذا تكرمتم علي واعترفتم بان نظراتهم الودودة يمكن ان تعد نوعا من الاهتمام . انا علي اية حال سوف احكي لكم ما جرى لي في ذلك اليوم ، أو سيحكيه لكم على لساني انسان مجهول لا اعرفه ، وكل ما اطمع فيه هو القليل من وقتكم وان شئتم ايضا من صبركم وتسامحكم .

في ذلك اليوم صحوت كعادتي في كل صباح فاحسست ان عظام ظهري وجنبي تؤلمني اكثر من اي يوم مضى . لم اكترث لذلك كثيرا ، بل لم احاول ان افتح عيني لانني كنت اعلم سلفا انهما لن تريا شيئا في ظلام الكهف الذي اعتدت ان آوي اليه كلما جن الليل . وعندما تحسست وجهي بكفي ـ من قبيل الاطمئنان لا غير ـ لاحظت ان شعر ذقني قد طال اكثر من اللازم وانني في حاجة الى ان اذهب الى الحلاق في اقرب وقت ، وان كنت احسب حساب زيارته لما تكلفني من مال لا طاقة لي به ومن صبر على الجلوس امامه كانني قرد مسلسل بالقيود ، وثرثرته التي لا تنتهي في كل شيء لا يعنيني ، وكل شيء كان في ذلك الحين لا يعنيني .

المهم انني كنت قد صحوت من نومي ـ وهذه نعمة من الالهة ان يصحو الانسان كل صباح ويتمكن من تحريك عضلاته بغير مشقة ـ ومددت يدي على الفور في جيبي لاطمئن الى وجود الورقة المالية التي اعطاها لي زميلاي الجديدان في الكهف ـ ساحدثكم عنها بعد قليل فارجوكم ان تصبروا ـ كانت السماء تمطر في الخارج فلم استبشر كثيرا لذلك اذ كنت اعلم ان سقوط المطر معناه ان غنمي التي ربطتها كما افعل كل ليلة قبل ان آوي الى الكهف قد ابتلت ، وان بعضها لا شك قد اصابه البرد والسعال . ولكنني لم اجد الغنم في مكانها الذي تركتها فيه ـ ورحت ابحث عنها في كل مكان ، ودرت حول الكهف اكثر من مرة ، وجريت الى المراعي المجاورة ولكنني لم اعثر لها على اثر ، بل لم اجد حتى اثار اقدامها على الارض . حزنت بالطبع لفقد غنمي ، وهي كل ما املك من متاع الدنيا ، وعزوت ذلك الى كثرة قطاع الطرق الذين كان عددهم يزداد في مدينتنا افسوس .. خصوصا بعد المجاعة التي كانت قد انتشرت فيها ، والفوضى التي كانت قد جعلت الواحد منا لا يطمئن على نفسه ان يخطفوه في عز النهار . المهم انني حاولت ان اعزي نفسي واقول لها انني ربما وجدتها ترعى عند جار لي او ربما عوضتني عنها السماء بقطيع اخر او حتى بالنسيان . وساعدني على ذلك انني التفت ورائي فوجدت كلبي قطمير يرفع راسه الي في حنان عظيم .. ـ ربما كان راجعا الي لشدة جوعه ـ ويهز ذيله ويجري نحوي فيتشمم رجلي ويلعقها بطرف لسانه ويجري امامي . ولا بد لي ان اقول هنا انه كان يبذل مجهودا كبيرا ليقنعني بانه ما زال قادرا على الجري، حتى ظننت ان عظام ظهره ايضا تؤلمه كما تؤلمني .

لم اكد اسير خطوات في طريقي الى السوق لاشتري طعاما لي ولصاحبي المترفين في الكهف ـ عددا من الارغفة وشيئا من الجبن والخضروات ، والفاكهة ان بقي من الورقة المالية شيء ـ حتى لاحظت ان فارسا مهيبا كان يمر بي يقف بجواده فجاة ويدير راسه نحوي ويفتح عينيه دهشة ويصرخ مفزوعا ثم يطلق لجواده العنان . اقول لكم الحق انني تعجبت بيني وبين نفسي لمسلكه ، وان كنت قد حمدت السماء انه لم يكلمني ولم يكتشف في مشيتي شيئا يؤاخذني عليه . فقد كنت دائما سيىء الظن بالفرسان ، اتجنب طريقهم ، واتلافى التحدث معهم ، واتقي غضبهم المفاجيء وسيوفهم اللامعة واقدامهم التي تتلذذ دائما بركل الرعاة من امثالنا . وهززت راسي تعجبا وسرورا وانا اتابع سحابة الغبار التي تثيرها حوافر الجواد الاصيل وهو ينهب الارض نهبا . ومضيت في طريقي احاول ان انقي المطر بوضع طرف ردائي على راسي ، والدندنة بلحن كنت استعذب غناءه خصوصا اذا عرفتم انني انا الذي الفت انغامه وكلماته التي لا شك انها كانت سخيفة وعبيطة ككل شيء كنت افعله ويضحكني قبل ان يضحك غيري. وتذكرت زميلي تلك الليلة في الكهف . كنت قد قابلتهما في اليوم السابق بينما كنت احاول ان اجمع غنمي المشتتة قبل ان تغرب الشمس . كانا يسيران ، لابل يجريان في خوف وكان احدا يتربص بهما ، وكان منظرهما يوحي بانهما يبحثان عن ملجا يسترهما ، وان كنت قد استبعدت بالطبع عن ذهني ان مثلهما ـ وقد كانت ملابسهما تنطق بانهما قائدان عظيمان أو حارسان من حراس قصر الملك او وزيران من وزرائه كما علمت فيما بعد ـ اقتربا مني وقال احدهما ، وكان نحيلا طويلا واسع العينين سمح الوجه ، عصبيا يتحسس وجهه بيديه ويتلفت وراءه مذعورا في كل لحظة .

ـ ايها الراعي الصالح (لم ادر لاي سبب وصفاني بالصلاح مع ان الجميع ، وانا اولهم ، كانوا يشهدون لي بالعبط) هل تعرف مكانا نأوي اليه ؟

قلت وانا ما زلت انادي على غنمي واداري خوفي منهما :

ـ ليس في هذه الحقول مكانا يليق بكما ايها القائدان العظيمان .

قال الرجل الاخر الذي كان يبدو اكبر من صاحبه سنا ، كما كان اقصر قواما واميل الى السمنة والاعتدال في حركاته وكلماته :

ـ اي مكان في الارض يرضينا ايها الراعي الصالح ، ما دامت كلها ارض الله . المهم يسترنا عن عدو الله .

قلت في غباء شديد لم يكونا يعرفانه بعد عني :

ـ وما دام هو عدو الله فما شانكما به ؟ لاحظت ابتسامة متسامحة على وجههما وقال الرجل الطويل النحيل في وقار لم اكن اتصور انه يمكن ان يصدر عنه :

ـ ان عدو الله هو عدونا ايضا . فنحن الاثنين نؤمن بالله ايها الراعي الصالح . وسوف تؤمن انت ايضا به اذا عرفته . ولكن عدو الله وعدونا دقيانوس (وهنا تذكرت انني سمعت هذا الاسم من قبل) ، يريد ان يمسك بنا وينتقم منا .

وتدخل الرجل السمين المتوسط القامة فقال في صوت متزن :

ـ وان يفعل بنا مثل ما فعله باخواننا من الشهداء الصالحين .

تساءلت وانا نفسي مندهش من جهلي : « وماذا فعل بهم ؟ »

فاجابا في صوت واحد غاضب حتى خشيت ان اكون قد ارتكبت ما يوجب الموت علي :

ـ الم تدر بعد بما فعله ؟ لقد ذبح المؤمنين ، وقطع اجسادهم ،

وغلقها على أعمدة غالية حول سور المدينة . ألم تسمع بذلك ؟

قلت كاذباً لانجو من عينيهما المدهوشة التي تكاد تفتك بي :

ـ «طبعا علمت . ولكنني لم اكن اعلم انكما من اعدائه» .

ثم اضفت لكي انهي الحديث الذي لن استطيع المساهمة فيه : على كل حال انا ابيت في هذا الكهف (وهنا اشرت اليه كانني اعتذر) .ان شئتما اقمتما فيه الليلة معي .

واردت ان اكمل اعتذاري لهما ولكنهما سارعا الى المدخل وهمايهتفان في سعادة الاطفال :

ـ جازاك الله خيراً ايها الراعي الصالح : لتحل عليك بركة السماء.

ثم تمتما بكلام غريب وهما يجريان نحو الكهف ويتلفتان حولهما ،مما جعلني اطمئن الى انني لست بالعبيط الوحيد في هذه الدنيا ، كما كنت دائما اقول لنفسي .

وعندما دخلت من باب الكهف ، بعد ان ربطت غنمي وجمعت لهما ما يكفي عشاء الليلة ، سمعتهما يتكلمان . وحين وقعت ابصارهما علي توقفا عن الكلام فجاة واحتواهما الصمت والظلام والعنكبوت الذييسود عادة في الكهوف . انزويت وحدي في ركني المعهود ، وبسط قطميـر ذراعيه امامي ، وخيل الي انني سمعت شخيرهم هم الثلاثة قبل ان اغفو تماما .

لا اطيل عليكم . فقد وصلت الى السوق الذي حدثتكم في اول هذه المذكرات انني كنت في طريقي اليه لشراء الحاجيات التي كلفوني بشرائها . لم يسترع انتباهي شيء غير مالوف ، فذلك كان طريقي المالوف كل يوم تقريبا ، من الكهف الى السوق لارى الناس لاشتري منهم أو ابادلهم بغنمي او لبني او صوف مغزلي لقمة او كسرة اوذكرى اعود بها الى كهفي في حضن جبل بنجلوس . اشجار الجميز الضخمة وفروع الكافور العالية تتمايل على جانبي الطريق الجبلي المترب احدثها وتحدثني ، فانا راع قديم افهم لغة الاشجار واتبادل الغناء مع العصافير واتفاهم مع الانجم الوحيدة ، واحيي اشعة الشمس التي تقبلها وتغسل عن خصلات شعرها تعب الليل . قلت انني لم اجدشيئا غير مالوف فيما رايت ، هذا اذا استثنيتم حادث الفارس الشجاع الذي عبر بي وولى مذعورا عندما راني ، اذ استطعت بعد ان استنشقت بعض نسمات منعشة ان اسامحه ، بل وضحكت ايضا وعجبت لان هناك مخلوقا يمكنه ان يرتاع لمجرد رؤيته لي . اقول هذا لامهد للحادثة التي جرت لي بعد ذلك ، الحادثة الوحيدة في حياتي القصيرة غير المتناهية ، والتي جعلتني اصرخ وابكي . نعم ابكي . ربما لاول مرة ، انا الذي ما عرفت شيئا في حياتي مثل الكتمان ، والبعد عن كل ما تفوح منه رائحة المأساة .

فلم اكد ادخل السوق حتى بدا الناس يتهامسون ، ويضعون ايديهم على افواههم ، او على عيونهم ، ويفرون من امامي ثم لا يقاومون رغبة في الالتفات الي باعين مدهوشة مذعورة . لا اريد ان ابالغ في هذا ، فانتم تعرفون ان كل همي في حياتي كان دائما الا يهتم بي احد ، ولذلك فلا تتثورون مدى ضيقي وذهولي ورغبتي في ان اصفعهم جميعا واستريح . وقد زاد ذهولي عندما اقتربت من دكان صديقي القديم اندرايوس لاشتري حاجتي واعود باسرع ما استطيع ، فوجدت الدكان ليس هو الدكان ، ولا اندرايوس هو اندرايوس ، لا بل لعنت غبائي وغفلتي حين تلفت حولي فوجدت كل شيء يختلف عن كل شيء تعودته، الوجوه غير الوجوه ، الازياء غير الازياء ، البيوت غير البيوت ولا بد ايضا ان سكانها غير سكانها ، حتى وجوه القطط والكلاب كانت تبدو لي جديدة وغريبة ودائمة التساؤل والتطلع الي . لا اخفي عنكم انني بدات اتشكك في كل شيء ، بل وتمنيت لو اعطاني احد في تلك اللحظة مراة ارى فيها وجهي لاعرف انه هو وجه يمليخا وان عينيه وملامحه وابتسامته هي هي لم تتغير . انني على كل حال لم انزعج اكثر من اللازم ، بل تماسكت وخطوت بين الوجوه الذاهلة والشفاه المرتعشة والايدي المشيرة نحوي ـ الى الدكان الذي تصورت انني زبونه القديم ومددت يدي في جيبي فاخرجت الورقة المالية التي اعطاها لي القائدان العظيمان وقلت في ادب مفرط كان يحس الناس منه دائما انه دليل الخوف والاعتذار اكثر من ان يكون تعبيرا عن الاحترام :

هل تتكرم ياسيدي وتعطيني ثلاثة ارغفة ورطلا من الجبن واخر من البرتقال ؟

ويظهر ان الرجل لم يفهم كلامي او لم يتصور ان مثلي يمكن انيخرج من فمه كلام . فقد بحلق في وجهي ، ثم عاد يبحلق في الورقة المالية (كانما يبحث عنوجه التشابه بينهما) وارتعشت عضلات وجهه واختلجت حواجبه ورفع يديه مذهولا ثم جرى من الدكان وهو يصيح على الناس والورقة المالية بين يديه :

كنز ! كنز ! هذا الرجل عنده كنز !

واقبل الناس من كل مكان (وكان بعضهم في الحقيقة في غيرحاجة الى صياح البائع لانه كان يبلحق في منذ مدة طويلة) . وحاصرنيالناس من كل ناحية حتى اختنقت انفاسي وكدت اغرق في بحر العرق الكريه التي يتصبب منهم ، والاسئلة الفاضبة المستطلعة الخائفة التياحاطوني بها . ولا اكذب عليكم فاقول ان افكارا كثيرة خطرت لي في هذه اللحظة فالحقيقة ، انني لم افكر في شيء ولا كانت عندي القدرة على ان اتصور انني موجود فما بالكم بان افكر ؟ المهم ان صوتا طيبا انقذني من هذا الشلل ـ حين تبينت مصدره عرفت انه ياتي عن شيخ عجوز ذكرتني لحيته الطويلة بانني انا ايضا لي لحية طويلة استحقت يد الحلاق منذ مدة طويلة ـ قال لي الصوت بعد ان وقف صاحبه امامي بين رهبة الحاضرين واجلالهم :

ـ من انت ايها الغريب ؟

قلت في ادب عظيم لا يخفي شكري على انقاذي من هذه الورطة :

ـ انا يمليخا يا سيدي .

فعاد الصوت يسال في حنان كبير :

ـ يمليخا من يا بني ؟

فقلت في سخط من يسال عن شيء يحسب انه بديهي :

ـ يمليخا الراعي يا ابي . يمليخا الراعي .

وكدت انصحه بان يسال وسوف يعرفني لولا انني لاحظت العيون الجامدة من حولي وجاء في صوته قائلا :

ـ من ابوك وامك ؟

فصحت ثائرا : ـ ما جدوى هذه الاسئلة كلها ؟ لقد ماتا كما يعلم الجميع وانا طفل . ماتا على عهد ..

وقاطعني في حب عظيم وكانه عثر على السر : على عهد من يا بني ؟

فقلت وكانني اباهي بانتصاري : على عهد دقيانوس طبعا .

فقال وردد صوته بعض الحاضرين : لكن دقيانوس هلك يابني . هلك منذ قرون عديدة وهلكت بعده اجيال واجيال .

اردت ان اسخر من عبطه وانصحه بان يخفي جنونه الذي افتضح امام الناس جميعا لولا انني رايته يجثو امامي فجاة ويقبل طرف ردائي الخشن بل ويمد شفتيه ليقبل قدمي ويقول وهو يكاد يبكي :

ـ ايها القديس ! شرفت بلادنا ايها القديس ! (ثم وهو يرفع راسه ويتطلع الى وجوه الحاضرين) لقد قلت لكم دائما انهم سيعودون . قلت لكم ان القديسين الثلاثة الذين ناموا في الكهف واختفت اخبارهم سوف يعودون .

هلل الجميع وكبروا وانا اتعجب كيف يصبح الجنون شيئا عاما في هذه المدينة العجيبة . ولم افق من حيرتي الا وقد اخذوا ردائي وطوقوه في عنقي وقادوني ـ وهم يتمسحون بي ويتحسسون جسدي ـ في سكك المدينة . ولم ينسو ان يقودوا معي كلبي العزيز قطمير الذي كان يعول من الدهشة ويحاول مذعورا ان يفر من الكلاب التي راحت تحيط به وتتشممه كانها لم تركلبا على صورته .

وطبيعي انهم سالوني عن مكان صاحبي فدللتهم على الكهف الذي كانا ينتظراني فيه . ولا بد ان جموعهم قد ذهبت اليهما وساقتهما في موكب عبر شوارع المدينة كما عبر بها موكبي . اذ لم نكد نصل الى قصر الملك ـ كما اخبروني فيما بعد ـ حتى رأيتهما قد سبقاني اليه ـ كان

الملك يقف معهما في شرفة القصر المطلة على ساحة عظيمة مزدحمة بالجماهير ، تحيط به جموع من الرهبان والحراس والوزراء . وسوف تعجبون اذا قلت لكم انه لم يكد يراني حتى نزل بنفسه من شرفة القصر ، ولم يكتف بتحيتي بل عانقني وركع امامي – انا يمليخا ، الراعي المسكين الذي لم يكن يهتم به احد ولا كان يحلم في يوم من الايام بان يتعطف الملك وينظر اليه نظرة واحدة .

لا اريد ان اطيل عليكم فقد اخذت من وقتكم بالفعل اكثر مما كنت اطمع فيه . ولا اريد ان ارهقكم بسرد كل ما حدث لنا قبل ان نعود الى الكهف من جديد ، على اثر صرخاتي التي دوت في ارجاء القصر وجعلتني انا نفسي اندهش من صدورها عني ، انا يمليخا العبيط الذي كانت الابتسامة لا تفارق شفتيه .

قضيت الساعات القليلة التي امضيناها في القصر افكر في حالي، ربما لاول مرة يتاح ليمليخا ان يفكر في حاله . اما ان هؤلاء الناس جميعا عقلاء وانا وحدي المجنون ، واما انهم جميعا مجانين وانا وحدي العاقل. كل شيء يؤكد لي كما قالوا انني شبح – ولكن متى خالجني الشك في هذا ؟ – خرج بعد نومة استغرقت ثلاثمائة عام .

لم احك لكم شيئا عن حياتي قبل ان ارقد هذه الرقدة الميتة التي ارادوا ان يقنعوني بها – لا عن نفسي ولا عن ابوي ، اعتمادا على انكم ستدركون بانفسكم انني حتى لو اردت فلن اجد ما احكيه عن نفسي ولا عن ابوي اللذين كانا ماتا من زمن بعيد –حتى قبورهما لم اكن اعرف مكانها مما كان يجعلني اشك في بعض الاحيان ان كان لي اب وام وتاريخ مثل بقية الناس .كنت اعيش مهملا من كل شيء ومن كل انسان – اللهم الا اذا استثنيتم ، كما قلت من قبل – غنمي وكلبي العزيز قطمير – وكنت قد دربت نفسي على السعادة بهذا الاهمال ، اؤدي عمل اليوم ، واتجول في السوق ، واغني لغنمي ، واداعب كلبي واتكلم مع الاشجار والعصافير والنجوم . حتى كان يوم وانا اتجول كعادتي في السوق – ارجوكم الا تعدوا ذلك حادثة ، فلم يمر بي شيء يرتفع الى مستوى الاحداث – ورايت موكبا من الفرسان والحراس والعبيد يسيرون امام عربة فخمة لم تر مثلها عيناي . انتم بالطبع تتصورون انني وقفت على جانب الطريق مثل بقية الناس ، اتطلع في شوق غامض الى داخل العربة . هل اقول لكم ان قلبي انتفض كالعصفور المذبوح في القفص حين وقعت عيناي على وجه لم ار اجمل منه في يوم من الايام ؟ انهذه حادثة مكررة – الشحاذ الذي يقف على جانب الطريق ويحلم بان الاميرة احبته من اول نظرة – ولكنني ارجوكم الا تقسوا علي ، وان تصدقوني ان قلت لكم انني انا ايضا قد حدث لي ما حدث للشحاذ المسكين . فقد وقعت عيناي على الوجه الجميل كما قلت ، ، وخيل الي في لحظة من لحظات الجنون او السعادة المفاجئة ان عينيها التقتا بعيني وانها – ارجوكم الا تضحكوا علي فانا كما تعلمون شبح لا مكان له في عالمكم وسيعود الى كهفه المعتم الامين بعد قليل – ايضا قد بادلتني حبا بحب – في لحظة خاطفة ، سعيدة ومخيفة وباهرة كضوء البرق . ولم افق من هذا الحلم الجميل الا على صفعة قوية على قفاي ، لاحظت انها اضحكت الاميرة الفاتنة فضحكت انا ايضا وغفرت لصاحبها قسوته ، خصوصا اذا عرفتم انني التفت فوجدته حارسا اسود ضخما غليظ الكفين من الحكمة دائما ان يتجنب الانسان طريقه ولا يوقظ غضبه سياطه – هذه الحادثة – ان شاء كرمكم تسموها كذلك – هي التي جعلتني ارضى عن وجودي ، بل واشكر الالهة التي ساقت قدمي الى السوق في ذلك اليوم وانعمت علي بتلك النظرة السماوية كما رزقتني بتلك الصفعة التي لا شك في انني كنت استحقها . من ذلك اليوم ، او قولوا من تلك اللحظة ، وانا اكلم الاشجار والعصافير والنجوم كما قلت لكم للاسف اكثر من مرة ، من تلك اللحظة . وانا احلم واغني لنفسي ولا انتظر شيئا .

هل استطردت كثيرا بغير داع ؟ اسالكم للمرة الاخيرة ان تعفوا عني فربما دفعني الى ذلك انني اردت على الرغم من كل شيء الا تخلو حياتي من حادثة واحدة ارويها لكم من ذكرى واحدة يمكن من اجلها ان تسمى هذه الحياة نفسها حياة . ولكن ها انا قد فشلت ايضا في هذا ،ولاثك انني قد استحققت سخطكم ، مما يجعلني التمس منكم العفو من جديد.

صدقوني اذا قلت لكم ان بكائي في ذلك اليوم كان شيئا غريبا علي دهشت انا نفسي له ،انا يمليخا الذي لم تفارق الابتسامة يوما شفتيه. هل قلت بكائي ، لا لم يكن بكاء . كان عويلا ، نباحا ، نشيجا مفجوعا يشق صدرا مفجوعا ،اهات لم تخرج بعد من شفة انسان وقد لاسمعونها ابدا من شفة انسان . وما بالكم بانسان نام في عالم لا يمت اليه بسبب ثم صحا بعد ثلاثة قرون ليرى نفس العالم الذي لا يمت اليه بسبب ؟ الا تجدون العذر لصاحبه – الذي لا يكره شيئا كما يكره المبالغة وادعاء المأساة – اذا قال لكم انه بكى ، وصرخ ، لا بل نبح واعول كوحش يذبح ويسلخ ويداس على جثته بالاقدام ؟ وهل ستفهمونني او تغفرون لي ان قلت لكم ان بكائي المتقطع المخنوق المدوي هو في نهاية الامر كل ما فعلته في حياتي ، حتى ان الاجيال لن تجد ما تقوله بعد ذلك عني – ان ذكرتني او قالت شيئا – سوى انني بكيت ؟

معذرة . ها انا اقول لكم مرة اخرى انني لا اود ان اطيل عليكم . لكنني قد اطلت وربما املت فما العمل يا ترى ؟ لا شك انكم تطلبون مني الان ان ادخل مباشرة في الموضوع وان اروي لكم سبب بكائي .

كنت اتجول في حديقة القصر وحدي بعد الظهيرة ، فرارا من عيون الناس وثرثرة الرهبان ومحاولات النساء والاطفال ان يتبركوا بي (اقول هذا وان كنت اجد نفسي مضطرا لوضع الامور في مكانها الصحيح ان اعترف لكم بان اهتمام الناس والرهبان ... الخ بي كان اقل بكثير من اهتمامكم بالقائدين العظيمين ميشلينا ومرنوش بل ارجوكم الا تظنوا بي المغالاة ان قلت لكم انهم اهملوني ولولا الصدفة التي جعلتني ارافقهما في الكهف ثلاثمائة عام لنسوني كل النسيان .) المهم انني كنت اتجول ساعة الغروب في حديقة القصر حين رايت مرنوش وقد سمح لي ذلك الاكتشاف الذي حدثوني عنه ، واعني به اننا نمنا معا ثلاثة قرون في كهف واحد – ان ارفع الكلفة بيني وبينه وان انادي باسمه مجردا من الالقاب الجديرة به – يدخل من باب القصر مفزوعا شاحب الوجه زائغ العينين . لم اكد اساله عما يشغله حتى وجدته يجري نحوي ويعانقني ويلقي براسه على كتفي وينهنه قائلا :

– ماتوا يا يمليخا . كلهم ماتوا .

سالته محاولا ان اعيده الى العقل :

– من هم يا مرنوش ؟

قال ونشيجه يزداد وصدره يرتفع وينخفض فوق صدري :

– ابني الوحيد يا يمليخا .. ابني الوحيد وزوجتي . كل ما كان لي في هذا العالم انتهى .

قلت في برود لا شك انه كان قاسيا وان كنت قد تعمدته لاوقظه مرة واحدة :

– وهل كنت تنتظر ان يظلوا احياء بعد ثلاثمائة سنة يا مزنوش ؟

فرفع وجهه الي ورايت عينيه الباكيتين المحمرتين بلون الدم وصرخ:

– يا لها من كلمة يا يمليخا ! انت ايضا تقولها مثلهم ! ايها الراعي

منشورات ((دار الاداب))

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)

الصالح . لم يبق لي شيء في هذا العالم . ابني الوحيد مات زوجتي الوحيدة ماتت .

قلت في صوت تعمدت ان يكون غليظا وقاطعا :

ـ بالطبع يا مرنوش . لم يبق لنا شيء في هذا العالم . انا نفسي كنت اعرف هذا قبل ان يقولوه لنا .

« رفع راسه من على كتفي ووقف امامي مذعورا وهو يهتف :

ـ كنت تعرفه ؟ كنت تعرف ان ابني الوحيد مات ولم نقل لي . تركتني اتعرض لسخرية الناس في الشوارع . يالك من فظ متحجر !

قلت في استخفاف : لا تنس ايها القديس انك تخاطب قديسا مثلك فعاد يصرخ لم يبق لي شيء في هذا العالم . ابني الوحيد مات. اين ميشلينا ؟ »

وجرى يقفز سلالم القصر وانا في اثره . ودخلنا ردهة بعد ردهة والحراس ينحنون كلما مررنا بهم ، وان لم يخفوا دهشتهم من انيجري امثالنا من القديسين على هذا النحو . وحين وصلنا الى بهو الاعمدة ، والوقت ليل والمكان مضيء وجدناهما . وجدنا ميشلينا الذي حلق شعره وذقنه واستحم ولبس ملابس جديدة وبدا بثيابه الزاهية وجسده الممتلىء كانه عريس في ليلة الزفاف ، وهي امامه ، هي بعينها الاميرة التي كنت قد رأيتها جالسة في عربتها التي تجرها الجياد وتسير حولها العبيد والحراس ، هي بعينيها اللتين نظرت بهما الي ففرت وشعرت بذلك الشيء الذي لمع كالبرق في قلبي لحظة واحدة ، هي التي صفعني الحارس الغليظ (اين هو الان ؟) على قفاي بسببها فضحكت ـ يا لها من ضحكة فاتنة لم تزل ترن في اذني وتسميني اللطمة الخشنة. كان ميشلينا هو الاخر يصرخ ويناجي ويبوح ويكتم ويشرح ويثور ويتذكر ويذكر ويضحك ويبكي في نفس واحد . لم اكن في حاجة لان اعرف انه هو ايضا كان قد احبها ـ او بالاحرى احب جدة جدتها التي تشبهها كما تعلمون ـ واحبته ، وعدها ووعدته ، اخلص لها واخلصت له . لم اكن كذلك في حاجة لان اعرف ان قلبي (لم اصر علي ان يثبت وجوده في تلك اللحظة ؟) قد انتفض في صدري تماما كما انتفض في ذلك اليوم الذي حكيت لكم عنه . هب مذعورا من رقدة ثلاثمائة عام . ثار وصرخ واعلن سخطه ، لا لانه اكتشف ان ميشلينا كان يحبها ، فقد كان يعرف انه بفخامته وجماله ومنصبه اولى بها منه ، ولا يأسا لانه فشل في الوصول اليها وامتلاك حبها ، فلم يكن قد تعب شيئا في سبيل ذلك الحب ولا فكر في ان يبذل اي شيء في سبيله ، وانما كان شيئا كخيبة الامل ـ نوعا غريبا منها لا يدري كيف يصفه او يفسره . عند ذلك صرخ، او لنكن اكثر قربا من الواقع فنقول صرخت ، انا يمليخا ، الراعي المسكين الذي يسمونه الان بالقديس ويضايقونه بالتبركات ، الذي لم تفارق الابتسامة شفتيه . لم يكن لي الحق بالطبع في ان انبهه الى انني احببتها قبله ، او حتى معه في وقت واحد . ولم يكن من المعقول ايضا ان تتذكر هي شيئا من ذلك الحب ، وهل يتذكر الانسان نظرة عابرة لمست عينه في لحظة عابرة ؟ ثم انها لم تكن هي نفسها الاميرة الجميلة التي نظرت الي في ذلك اليوم من ايام عمري البعيد منذ مئات السنين ، بل حفيدة حفيدتها ، وان لم يخف علي بالطبع انها كانت صورة حقيقية منها ، لها نفس عينيها ووجهها وشعرها الفاحم الطويل وقامتها الشامخة النبيلة . اقول انني كنت اعرف هذا كله ومع ذلك بكيت . هل اقول : بكيت . لا بل صرخت ، نشجت ، نبحت واعولت وعويت واخرجت من صدري كل عذاب الخليقة وهي تذبح ، وتقتل ، وتسلخ وتجلد وتداس بالاقدام . ليس مهما بعد ذلك ماذا قلت . ربما قلت ان هذا العالم ليس عالمنا . ربما قلت انه ينكرنا ، كل شيء فيه ينكرنا . ربما قلت ايضا اننا لا بد ان نعود الى الكهف ـ مع انني كنت اعلم اننا لا بد عائدون ، لان انهيار قواي والرائحة العفنة التي كنت اشمها تتصاعد من جسدي لم تكن تخفي عني اننا اشباح مكفنون ، قمنا من قبورنا لنمثل دورا غبيا نعود بعده الى توابيتنا من جديد ـ وان الكهف هو مكاننا الوحيد ، هو مأوانا وواحتنا وعزاؤنا الاخير . لا ادري ان كنت قد قلت هذا كله او لا . المهم يا صحابي انني بكيت ، اعولت ، نبحت ، عويت كما لم يبك او يعول او يعوي وحش يحس بلمس السكين الناصعة تشق لحمه وقلبه وهو مفتوح العينين .

ماذا اقول ؟ الم اقل بالفعل ما فيه الكفاية ؟ الم اعدكم الا اطيل عليكم او آخذ ما لا استحقه من وقتكم ، وصبركم ، وتسامحكم ؟ ثم ماذا اقول وكل شيء تعرفونه عني ، ومصيري ايضا لا أستطيع ان احتال عليكم بحيلة روائية سخيفة لازعم انه اختلف عن المصير الذي تعرفون. لاختصر اذن . لاصل الى النهاية التي سمعتم عنها جميعا . لاقل لكم ـ وانا ما زلت اعتذر اليكم واطلب عفوكم ـ أننا عدنا جميعا الى الكهف. عدنا بعد ان اقتنعنا ، كل على طريقته ، انه لم يعد لنا شيء في هذا العالم . دعوكم من الموكب الذي صاحبنا الى هناك ، من الصياح والمشاعل والزحام والايدي الباكية التي طالما ضايقتنا بلمساتها ودعواتها وتبركاتها ، من الرهبان وصلواتهم المملة التي كنت اضع اصابعي في اذني لكي لا اسمعها وهي تشيع جنازتي التي كنت انا نفسي اسير فيها ! ساريحكم من هذا كله فهو مكرر معاد . كل ما أريد ان اقوله لكم انني ضحكت على نفسي بعد ان خرجنا من القصر ـ ضحكت على الدموع، على البكاء الاخرس الموجوع ، على الوهم الذي جعلني اتصور ما تصورت ، على اللحظة الواحدة المخيفة السعيدة التي تخيلت انها عبرت بي في ذلك اليوم الذي ذكرته لكم ، على الثلاثمائة عام التي قالوا لنا ـ وشهد بذلك جسدي الذي كان ينهار مع كل خطوة ويتساقط ويتعفن ـ اننا لبثناها في الكهف . ضحكت ، انا يمليخا ، الراعي الذي لم تفارق الابتسامة شفتيه ، الذي تعرف الناس انه كان عبيطا وسعيدا بعبطه ، والذي يعرف هو نفسه ذلك ولا ينكره .

ضحكت يا صحابي ، يا من تقرأون اليوم ذكرياتي المضحكة على لسان رجل مضحك لا اعرفه . وعندما سألوني كما سألوا ميشلينا ومرنوش عما أريد قبل ان يواروني التراب وخيب املهم انني لا اطالب بما طالب به القديسون والشهداء قلت لهم والابتسامة تلمع برغم ظلام الكهف الذي يخنق انفاس المشاعل :

ـ قولوا عني مات وعلى شفتيه ابتسامة !

القاهرة

عبد الغفار مكاوي

شعر

من منشورات دار الاداب

		ق. ل
○ الاعاصير	للشاعر القروي	٣٥٠
○ وجدتها	لفدوى طوقان	٣٠٠
○ وحدي مع الايام	» »	٣٠٠
○ اعطنا حبا	» »	٢٥٠
○ مدينة بلا قلب	لاحمد ع. حجازي	٢٠٠
○ عيناك مهرجان	لشفيق المعلوف	٢٠٠
○ ابيات ريفية	لعبد الباسط الصوفي	٣٠٠
○ في شمسي دوار	لفواز عيد	٢٠٠
○ الفجر آت يا عراق	لهلال ناجي	٢٠٠
○ المشانق والسلام	لعدنان الراوي	٢٠٠
○ حداء وغناء	لخالد الشواف	٢٠٠
○ عاشق من افريقيا	لمحمد الفيتوري	٢٠٠
○ احلام الفارس القديم	لصلاح عبد الصبور	٢٥٠